أن تستنكر أو ترفض أو حتى تصارع بقايا الرواسب الدينية التي لا يمكن إخمادها بهذه السهولة.

وما يفعله غوركي بشخصية الأم يفعله أيضاً بسائر الشخصيات الأخرى، فبافل يقدم وكأنه نبتة في غير أرضها، أو طائر في غير سربه، لأنه لم يتأثر بالبيئة التي نشأ فيها إطلاقاً، ولم يأخذ أية صفة من صفات العمال الذين كانوا لا يهتمون بشيء اهتمامهم بشرب الخمرة وإطلاق العنان لمشاعرهم «مزمجرين في وجوه بعضهم بوحشية حيوانية تنتهي دائماً باصطدامات دامية»[٤٤]. إن الحانات بالنسبة إليهم هي المكان الوحيد الذي يجدون فيه «قطرات من السعادة»[٤٥].

ولو أن غوركي تمهل قليلاً لما وقع في الابتسار ولما جاءت شخصية «بافل» متطورة تطوراً غير طبيعي.

وغوركي يأبى إلا أن يجرد بافل من عواطفه الإنسانية كما جرد أمه من عواطفها الدينية، فيجعله قاسي القلب حين يموت أبوه ولا يذرف دمعة أو يأسى لموته، كما أنه يجعله يرفض الحب رفضاً باتاً ويحذر صديقه الأوكراني من الزواج من زميلته «ناتاشا» التي يحبها خشية أن تخسرهما «القضية» معاً، هو وزوجته[٤٦].

ولم يقتصر غوركي على هذا، وإنما ذهب إلى أبعد منه، فأخذ يحرك الشخصيات ويدفعها إلى العمل لا من أجل تحسين ظروفها السيئة فحسب، ولكن من أجل تطبيق الفكرة الشيوعية في جميع أنحاء العالم، كما يتضح لنا من خلال بعض مناقشات الأوكراني وبيلاجيا: «... إن قلباً جديداً بعث إلى الحياة. والإنسان يسير قدماً إلى الأمام، وهو يضيء كل شيء بنور العقل، ويصيح وهو يدب في طريقه: يا شعوب جميع البلدان ا تحدوا في عائلة واحدة، فترد القلوب على ندائه فتضم أصواتها إليه، وتصبح قلباً واحداً كبيراً يشبه في قوته ودويه ناقوساً من الفضة»[٤٧]. و«الرفيق الأوكراني» هنا لا يتكلم مجرد كلام، بل إنه يعلن عن استعداده للتضحية بكل شيء في سبيل انتشار